﴿ البرُّ بالوالدين ﴾

« اكرم اباك وامك لكي
تطول ايامك على الارض »
(الوصايا العشر)

أقبل المساء وامتد ستر الظلام على البرية وساد السكون في الفضاء ولم يكن يشوب تلك السكينة غير ضوضاء الجند المجتمعين في حانة جرجوار في طرف البرية اذ كانوا يقبلون اليها كلما جنّ الليل وهدأت الخواطر

وكان لجرجوار فتاة حسناء تسمى مادلين ولكنهم يدعونها غزالة لخفتها وضياء عينيها وكانت لطيفة باسلة وهي ممن خدمن في الجيش في الفرقة التي كان جمعها نابليون من النساء المتطوعات في ذاك العهد

وفي ذلك المساء أجتمع ثلاثة من الضباط حول مائدة وتقدمت اليهن غزالة بالشراب واذ ذاك بدرها احدهم ويدعى فيليب وقال مداعباً: انت جميلة في هذا المساء ايتها الحسناء ولكن ارى وجهك عابساً فلو كان وليم معنا لكان مشرقاً وازداد جمالاً ولكن لا بد من حضوره : وقبل ان تجيب الفتاة دخل وليم وهو ضابط شاب جميل الطلعة معتدل القوام لطيف المعشر محبوباً من اقرانه فبادرهم القول : ها انا ذا لم اتاخر وكيف يمكني ان اغيب يوماً ولا اشاهد غزالتي ثم تقدم الى الفتاة وقد تهلل وجهها فقبلها في جبينها فتبسم فيليب وقال ما اسعد حظك مع

غزالة ولاغروَ فتكاد تكون خطيبتك، ولكن تعالى فاجلس وخذ حصتك من الشراب فان الكولونيل اليوم راض عن الجيش ويحق لنا ان نغتنم اوقات السرور، قال وليم اذن فلنشرب نخب الكولونيل فهتفوا جميعاً — فلنشرب نخب الكولونيل — ثم عطف فيليب وقال — ولنشرب نخب غزالة الحسناء — فعلا وجهها الاحمرار وما كادت الكؤوس ترفع عن شفاههم حتى حضر احد العسكر وفي يده رسالة ناولها الى ضابطه وليم ففضها وطالعها في لحظة فانقبض وجهه للحال وتغيرت هيئته وخفق فؤاده خفوقاً شديداً . وغمغم يقول : آه يا والدتي العزيزة : فتقدمت اليه غزاله تسأله الخبر وهي ترتجف زعراً فناولها الرسالة فقرأتها وهي خافقة الفؤاد وكان فيها نبأ عن مرض والدته ورغبتها في رؤياه قبل مفارقة الحياة فقالت « تشجع ايها الحبيب فانها بخير ويمكنك ان تراها » قال « هيهات وكيف احصل على الاذن بالمسير » قال فيليب « اذهب الى الكولونيل فهو يحبك ولا يضن عليك باثنى عشر ساعة قال نعم وها انا ذاهب فقالوا ندعوا لك بالتوفيق

وشيعته غزاله الى ان ذهب وهو يسرع الخطى حتى وصل الى غرفة الكولونيل فوجد عنده القواد وهو يعطي لهم الاوامر فلم يسعه الا الانتظار والصبر حتى فرغ فتقدم اليه وأدى السلام العسكري فقال له «ما حاجتك في هذا الآن يا وليم» فابرز له الرسالة دون ان يتكلم فقرأها وقد قطب جبينه وقال « قد فهمت فانت تروم إذنْ وهذا مستحيل » تلفظ بذلك فكان كلامه كالصواعق نزلت على وليم المسكين فخرّ راكعاً

وعيناه تزرفان الدموع وقال «رحمة بي بل رحمة بوالدتي التي تعالج سكرات الموت ولم ترني منذ دخولي في الجيش أي منذ خمس سنوات : انها تنتظرني يا مولاي لكي تراني وتنظر اليّ النظرة الاخيرة فارحمني يا مولاي»

وكأن ذلك الرجل حجر اصم ذو قلب جامد لا يتحرك ولا يشعر بل قال بسكينة وعنف هذا غير ممكن ايها الضابط لا يمكن ان تبارح الجيش دقيقة واحدة : فخرج وليم من عنده وهو مضعضع الحواس : كان يفكر في والدته الحنونة التي كان يعبدها ويحنو شوقاً لرؤياها ويتصورها طريحة الفراش وهي تنتظر ان تراه وتضمه الى صدرها وتودعه الوداع الاخير، فهاجت عواطفه واخذ يسير على غير هدىً ثم توقف فجأة وقد خطر له خاطر فأجال بصره في الميدان وكان الليل قد انتصف، وساد السكون، وسكنت الحركات، ففكر انه يمكنه ان يذهب الى القرية ويعود قبل طلوع النهار دون ان يشعر به احد فوقف حائراً يفكر . . . .

عزّ عليه ان تموت والدته دون ان يراها ويودعها ! وهي لا بد انها الآن ترقب الباب منتظرة قدومه !

جالت في نفسه هذه الخواطر فكاد يجن ولم يسعه الا المخاطرة

فالقى نظره على فناء الثكنة فلم ير احداً ولم يسمع حركة فدنى من السور وكان مرتفعاً فتسلق عليه بسرعة ثم القى بنفسه الى الخارج ووقف هنيهة ثم اسرع الخطى الى حانة جرجوار فبادره قائلاً هل حصلت على الاذن؟ فقال كلا يا عماه ولئن لم ار والدتي فاكون جاحداً نعمة الله

واموت كمدا فانزهل جرجوار وقال كيف خرجت اذاً وابواب الثكنة مغلقة الآن وعليها الحراس ؟ اجاب — ليس هذا وقته فاسعفني بعربتك وجوادك قال ما هذه المخاطرة اجاب وليم ان الدقائق معدودة ولم يبق على طلوع النهار الا بضعة ساعات فان لم تسرع يا عماه اكون هالك لا محالة فتردد جرجوار في بادىء الامر ولكنه اشفق على وليم وقد رآه منفعلاً متأثراً يكاد يسقط فاسرع في الحال وأعد العربة وكانت غزالة قد سمعت مجادلتهما وشاهدت وليم يبكي فارتمت عليه وقالت تشجع ايها الحبيب فقال ان حبك يوليني شجاعة وصبراً قالت ولكنك تخاطر بحياتك فلا تبطيء فركب وساق جرجوار المركبة لانه كان ذاهباً معه ليرى هذين الوالدين الكريمين وهما صديقاه وتاقت نفسه لمشاهدة القرية التي نشأ بها ثم اسرعا تحت جنح الظلام

وكانت القرية تبعد نحو الساعتين فوصلا اليها ووقفت العربة امام المنزل ونزل جرجوار ووليم مسرعين وكان الوالد قد سمع صوت العربة وهي قادمة فاخرج رأسه من النافذة فرأى ولده وليم فصاح واطرباه لقد حضر ولدنا الحبيب فلتباركه السماء فانتفضت الوالدة المحتضرة وهمت بالنهوض فلم تقدر ولكن وليم اسرع فارتمى على صدرها وهو يبكي فطوقته بذراعيها ومضت فترة والسكون سائد والمنظر رهيب ثم شهقت الوالدة وقد فارقتها الحياة بعد ان متعت نظرها بولدها وفلذة كبدها. فبكى وليم حتى خرّ ساقطاً فانهضه جرجوار وقال له هيا بنا يا ولدي فلم يبق لزوماً لوجودك والوقت يمر سراعاً فقال وا اسفاه

عليك أيتها الوالدة العزيزة فاعتنقه والده واخذ يقبله وهو يبكي فانتزعه جرجوار من احضانه بجهد وهو يقول ويلاه ان الفجر كاد ينبثق وفي ذلك الهلال المحقق. هيا يا ولدي ثم اصعده المركبة وهو خائر القوى واخذ يعزيه ويشجعه ثم صافح الوالد والهب الجواد بالسوط فاخذ يعدو في ذلك الفضاء

وكان الليل شديد الحلكة والجواد يسير على غير هدي فضل الطريق لسوء الحظ ودخل الجواد بالعربة في غابة كثيفة متشعبة فارتاع جرجوار لذلك واخذ يلهب الجواد بالسوط كي يخرج من الغابة وقد لاح الفجر فجمح الجواد وأخذ يعدو بقوة ولم تمض دقائق حتى ارتطم الجواد في شجرة ضخمة فانقلبت العربة بمن فيها وسمع لها فرقعة في الفضاء فصاح جرجوار مرتاعاً وسمع وليم يئن من ألم فبادر اليه فانهضه وقال له أسرع يا ولدي فقد اختفت الكواكب وبان النهار ولكنه سقط وهو يئن لان قدمه اصيبت فارتاع جرجوار وقال ويلاه من سوء حظك يا ولدي فانت هالك لا محالة ثم حمله على ذراعيه كالطفل وأخذ يعدو بكل قواه حتى وصل الى الحانة وقد طلع النهار ...

وكانت غزالة تنتظر بذاهب الصبر وهي منتصبة أمام الباب فصرخت عند ما نظرت والدها قادماً يحمل وليم وقالت ماذا حدث يا الهي قال والدها اسرعي يا بنية فضمدي هذا الجرح ثم اجلس وليم على مقعد وهو ساهي الطرف ينظر لغزالة وهي تضمد له جرحه وهو يبتسم بمرارة ولكنها كانت مضطربة ترتعد: أما جرجوار فقد وقف جامداً ينظر لهما وهو مكتئب عالماً بالمصيبة التي ستداهمهم ولكن وليم

كان ساكناً هادئاً وقد يئس من الحياة وتحقق انه سيعاقب كهارب وعقاب الهارب هو الموت لامحالة فاكتفى بان يغتنم ما تبقى من الحياة لكي يتمتع بمشاهدة حبيبته وكل منهم شاعر بمصيبة عاجلة : واذ ذاك ظهر عند منتهى الطريق فرقة من الجند تتقدم نحو الحانة فارتعدوا وقد علموا أن الساعة قد دنت فصرخت غزالة عند ذلك وخرت مغشياً عليها فحملها جرجوار الى داخل الحانة وهو خافق الفؤاد مكتئب

هذا والجند تقترب مسرعة . لان الكولونيل عند ما تفقد فرقته في الصباح لم يجد الضابط وليم فعلم انه هرب وللحال شكل محكمة عسكرية يرأسها بنفسه وامر بالقبض على ذلك الضابط التعيس اينما وجد فتقدم الجند اليه وهم خاشعين وقد نظروا ضماداته ورثوا لحاله فحملوه وجاءوا به الى تلك المحكمة الهائلة فبعد ان سمع دفاعه حكم عليه المجلس العسكري — الذي لا يرحم — بالاعدام رمياً بالرصاص لانه اعتبر هارباً من الجيش فوجم الحضور وهلعت افئدتهم لذلك الحكم القاسي البعيد عن الشفقة والرحمة . اما وليم فقد سقط على الارض لا يعي : راح وا اسفاه ضحية البر بالوالدين ولما افاق وجد نفسه في سجن مظلم لا يدخله الهواء الا من نافذة صغيرة مشبكة بالحديد فانّ وبكى بكاءً مرًّا

مضى عليه يومان في سجنه فكان يفكر فيما جرى له وكيف ان غزالة نسيته ثم قال ذلك محال فلا بد انها حضرت ومنعوها من الدخول فما اقساهم . . . . واذ ذاك فتح الباب وكان الداخل غزالة فصاح اليّ ايتها الحبيبة فقد بقي من حياتي دقائق معدودة وغداً اكون جثة هامدة

قالت لا تقنط ايها الحبيب فالله شفوق رحيم ثم مدت يدها الى سلة صغيرة كانت معلقة في ذراعها واخرجت منها ورقاً وادوات للكتابة وقالت اسرع في كتابة استرحام للقائد العام وانا ارصد لك الباب فذهل وكأنه لم يفهم وما عتم ان قال : لا لا اريد ان افعل فانهم قوم قساة غلاظ الاكباد لا يرحمون ولا يرأفون قالت بل اكتب وعليّ اقناعهم فلم يسعه الا الطاعة تجاه هذه البسالة والاقدام فاخذت منه الورقة وخبأتها في السلة وفرّت كالظبية لا تلوي على شيء

وكانت ثكنة القائد العام تبعد كثيراً عن المعسكر وغزالة مجدة في السير وهي ثابتة العزم لا تعرف الكلال حتى انتهت اليها فطلبت الاذن بالدخول على القائد العام فقدموها اليه فوقفت ومدت يدها اليه بذلك الاسترحام فلما قرأه قطب جبينه واخذ ينظر للفتاة ولكنه لم يكن قاسياً كالكولونيل فقال يسؤني يا بنيتي ان طلبك عظيم وان الاحكام العسكرية لا نقض فيها ولا ابرام : قالت بربك ارأف بحاله يا مولاي انه لم يأت امراً فرياً وهل يكون الرجل مذنباً اذا كان باراً بوالديه كوصية الله المقدسة! او هل يكون جزاء طاعة الخالق الاعدام العاجل! كن شفوقاً يا سيدي فانه عزاء والده بعد ان ماتت والدته المسكينة : ان والده سيموت حزناً عليه ثم غمغمت تقول بل اموت انا ايضا . . . . وكأن هذه الكلمات قد اثرت عليه ورقت فؤاده فاخذ يمشي في الغرفة ذهاباً واياباً وهو يفكر متردداً ثم قال هل هو اخاك أيتها الفتاة ؟ قالت

كلا ولكنا ولدنا في قرية واحدة وخدمنا في الجيش تحت لواء واحد(١) فبهت القائد وقال ماذا تقولين ؟ فبادرت للحال فاخرجت الوسام الذي احرزته مدة خدمتها في الجيش فنظر اليها معجباً يسألها وقال ألفى أيتها الفتاة فهل تحبينه كثيراً — قالت كيف لا يا مولاي ونكاد نكون شقيقين — فلم يجب ولم يتردد بل رفع القلم وخط سطراً على ورقة وختمها وكان فيها حياة ثانية لذلك الضابط المنحوس فتناولت غزالة تلك الورقة بلهفة ثم لثمت يده والدمع يتساقط من عينيها فرحاً ثم ولّت تعدو مسرعة

. . . . . .

هذا وكان اليوم الثالث هو موعد الاعدام وقد اخرج وليم وساروا به وحوله فرقة من الحرس وفي ايديهم البنادق وهم صامتون مكتئبون فاحس وليم باليأس وشعر بخيبة غزالة ولكنه تشجع . وقد دخلوا به الى البرية، وكان الفضاء قفراً موحشاً ، والسكون شاملاً ، وتقدم الضابط نحو فيليب فقال تشجع ايها الصديق فهذا قضاء الله وعصب عينيه ويداه ترتجفان ثم ابتعد وقد بدرت دمعة من عينه ثم اشار للجند فرفعوا بنادقهم وصوبوا اليه افواهها وكانت عشرة بنادق تقذف عشر رصاصات فتمزق جسمه تمزيقاً وذلك مما يهول ويروع : ولم يبق على الضابط

(١) كان كثير من السيدات يتطوعن للخدمة في الجيش اسوة بالرجال في عهد نابليون فالف منهن فرقة اظهرت من البسالة والاقدام ما يشهد لهن التاريخ بذلك

الا أن يشير الاشارة الاخيرة فيسمع دوي الطلقات الهائلة يرن في الفضاء فقال الوداع يا وليم ورفع يده مشيراً الى الجند . . . . واذ ذاك سمع صرخة عظيمة رن صداها في الفضاء فانتبهوا مدهوشين فرأوا الغزالة وقد هالها افواه البنادق المصوبة الى حبيبها وليم ، وخافت ان يكون قد فات الوقت وقضي الامر فارتمت امام الضابط فيليب وهي تلهث من شدة التعب والاعياء وفي يدها ذلك الامر المختوم، وتلك الحياة المردودة لصاحبها،ولو تاخرت لحظة واحدة لوجدت حبيبها جثة هامدة : دقيقة بل ثانيـة كانت اضاءت حياته وهي ثمينة عندها : وعند ما تلي الامر بالعفو تهلل وجهه وامر الجند للحال بنكس بنادقهم ثم بادر الى وليم فحل العصابة عن عينيه وعانقه وهو يقول اهنئك ايهـا العزيز بالنجاة فقد حصلت على العفو بفضل غزالة الباسلة : اما وليم فكان ذاهلاً لا يدري اذا كان ما يسمعه حقيقة ام اضغاث احلام، فارتمت عليه غزالة وهي تقول نعم قد نجوت ولا فضل لي في ذلك وانما لطف بك الله لبرّك بوالديك وعملك بوصاياه، وهكذا طالت حياتك على الارض فقبلهـا وهو يقول شكراً لك ايتها الحبيبة على بسالتك والف شكر

. . . . . .

بعد اربعة شهور كانت قد انقضت مدة خدمة وليم في الجيش فعاد الى قرية والده مع جرجوار وغزالة وكانوا ينتظرون ذلك بفارغ الصبر واحتفل بزفاف غزالة الى وليم وعاشوا معاً تحفهم السعادة والغبطة وهم يذكرون ذلك الحادث ويرددون الشكر والحمد لله على حسن الختام

(ص . الياس)